

الطُغْيَانُ

عناصر الموضوع

٥٠	مفهوم الطغيان
٥١	الطغيان في الاستعمال القرآني
٥٢	الأنفاذ ذات الصلة
٥٤	التحذير من الطغيان
٦٠	أسباب الطغيان
٧٢	مظاهر الطغيان وآثاره
٧٨	أساليب الطفاة
٨٨	جزاء أهل الطغيان

مفهوم الطغيان

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطاء والغين والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ منقاسٌ، وهو مجاوزة الحدّ في العصيان. يقال: هو طاغ. وطغى السَّيل، إذا جاء بماءٍ كثيرٍ»^(١). والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، يكون واحدًا والجمع الطواغيت^(٢). «والطاغية: الجبار العنيد»^(٣). وقيل: الذي لا يبالي بما أتى، يأكل الناس ويقههم، لا يشنيه تحرج ولا فرق^(٤). وقيل: «الأحمق المستكبر الظالم»^(٥).

والخلاصة: أن كل شيء جاوز الحد فقد طغى، ذكر ذلك أبو منصور الثعالبي، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»^(٦). وقال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»^(٧). وقال ابن القيم رحمه الله: «والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله»^(٨). والواقع أن الطغيان في الشرع يقوم على أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز الإنسان حده وقدره، وحد الإنسان هو ما حدّ الله له من حدود لا يجوز أن يتجاوزها.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٢.

(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ١٩١.

(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.

(٤) تهذيب اللغة، الأزهرى ٨/ ١٥٤.

(٥) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٤.

(٦) التعريفات ص ١٤١.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٥.

(٨) إعلام الموقعين ١/ ٤٠.

الطغيان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طغى) في الاستعمال القرآني (٣٩) مرة^(١).
والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ [النازعات: ٣٧]
الفعل المضارع	٥	﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]
اسم فاعل	٧	﴿أَنَوَاصِرَ بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]
اسم تفضيل	١	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢]
مصدر	١٠	﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]
الاسم	٨	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]

وجاء (الطغيان) في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه^(٢):

الأول: الضلالة والعصيان، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥] يعني: في ضلالتهم.

وقال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤] يعني: إنه عصى الله عز وجل.
الثاني: الارتفاع والكثرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُوفُ الْبَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] يعني: لما ارتفع وكثر.

الثالث: الظلم، قال تعالى: ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] يعني: لا تظلموا.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص ٢١٤. الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغي يبغي بغياً إذا تعدى وظلم. ^(١)

البغي اصطلاحاً:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، تجاوزه أم لم يتجاوزه ^(٢).

الصلة بين الطغيان والبغي:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل. والبغي: طلب تجاوز قدر الاستحقاق، تجاوزه أو لم يتجاوزه، وهو ضربان: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشبه ^(٣).

٢ العدوان:

العدوان لغة:

التعدّي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه ^(٤).

العدوان اصطلاحاً:

التّجاوز ومنافاة الائتام، والإخلال بالعدالة في المعاملة ^(٥).

الصلة بين الطغيان والعدوان:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل، والعدوان: تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده.

٣ العتو:

العتو لغة:

التجبر والتكبر ^(٦).

(١) لسان العرب، ابن منظور ٧٧/١٤.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٦.

(٣) الكلبيات، ص ٥٨٤.

(٤) العين، الفراهيدي ٢١٣/٢.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٥٣.

(٦) لسان العرب، ابن منظور ٢٨/١٥.

العتو اصطلاحًا:

عبارة عن الإباء والعصيان^(١)، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

الصلة بين الطغيان والعتو:

قال العسكري: «أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر، يقال: طغى الماء إذا جاوز الحد في الظلم، والعتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان»^(٢).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٥٤.

(٢) الفروق اللغوية ص ٢٣٠.

التحذير من الطغيان

تنوعت أساليب القرآن في التحذير من الطغيان، وستناولها فيما يأتي:

أولاً: النهي الصريح:

ورد النهي الصريح في كتاب الله محدثاً من ارتكاب الطغيان، فقال تعالى آمراً نبيه وأهل الإيمان بالاستقامة على الدين، ونهاهم عن الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٣﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَنَسِكُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿[هود: ١١٣-١١٢].

«فأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة؛ وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»^(١).

قال سيد رحمته الله: «وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير، إنما كان نهياً عن الطغيان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٤.

والمجاورة؛ وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحوّل هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتمزيق والتقصير، وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمسك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو، أو الإهمال على السواء»^(٢).

وأمر الله سبحانه عباده بأكل الحلال الطيب، ونهاهم عن الطغيان بالسرف والبطر، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

أي: ولا تطغوا في رزقي بالإفراط بشكره وتعدي حدودي فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على المعاصي، ومنع الحقوق الواجبة فيه، فينزّل عليكم غضبي، وتجب عليكم عقوبتي^(٣).

وقال ابن كثير: «أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقناكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالقوا ما أمركم به»^(٤).

ونهى عن الطغيان في الميزان، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧﴾ أَلَّا

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣١.

(٣) تفسير المراغي ١٦/ ١٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٠٨.

والمراد بالطاغين هنا: «عظماء أهل الشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل وأمية ابن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل وأضرابهم»^(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٦١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا﴾ [النبا: ٢١-٢٢].

أي: أنها كانت في حكم الله تعالى وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها^(٤). والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم^(٥).

ولما كان من صور الطغيان الطغيان بالظلم بين الله مصيرهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وأخبر سبحانه أنه لا يغفل عما يفعله الطغاة الظلمة من الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

تَطَفَّؤْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد اختلف علماء التفسير في معنى الميزان، ف قيل: هو العدل، وقيل: المراد آلة الوزن التي يتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف، وقيل: الميزان هو القرآن؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وقيل: إن الميزان هو الحكم^(١).

وليس هناك تعارض بين هذه الأقوال، ولا مانع أنه يعم الجميع، فالمطلوب من الإنسان ألا يطغى سواء في آلة الوزن، أو في تجاوز حدود الله، أو في ظلم الناس.

ثانيًا: التعليل بسوء المصير:

من أساليب القرآن الكريم في التحذير من الطغيان: ذكر الوعيد الشديد بسوء مصير الطغاة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى مبيِّنًا مصير الطغاة: ﴿هَذَا وَاتَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ﴾ [ص: ٥٥].

«وهم الذين تمردوا على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم، لشر مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا؛ لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم»^(٢).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥٤/١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢٦/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧٧/٢٣.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩٠/٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧٧/١٩.

أي: «لا تحسبته إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعدده عليهم عداً»^(١).

قال سيد رحمه الله: «ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة، ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء»^(٢).

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم: ٨٤].

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في

وقوع العذاب بهم، إنما تؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله^(٣).

«فيا ويل من يعدّ الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتبعتها ليحاسبه الحساب العسير، إن الذي يحس أن رئيسه في الأرض يتبع أعماله وأخطائه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان، فكيف بالله المنتقم الجبار؟»^(٤).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]^(٥).

وحيثما يتسلل الإحباط واليأس في نفس المؤمن وهو يرى ما عليه الطغاة وأهل الكفر من التمكين في الأرض، وما يملكونه من القوة والهيمنة، فليتذكر قول الله سبحانه: ﴿لَا يَغْرَنَّكَ تَغْلِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾^(٦) **مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ** [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

«وهذه الآية المقصود منها التسلية

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٦٢/٥.

(٤) في ظلال القرآن ٢٣٢٠/٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، ٧٤/٦، رقم ٤٦٨٦.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥١٥/٤.

(٢) في ظلال القرآن ٢١١١/٤.

والخلق:

فالطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسبون قوة الله وجبروته، ولكن الله لهم بالمرصاد.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِي إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٦) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ يَنْهَا فِي الْإِلْدَادِ (٧) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٨) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (٩) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْإِلْدَادِ (١٠) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١١) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٢) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٣)﴾ [الفجر: ٦-١٤].

«فربك راصد لهم، ومسجل لأعمالهم، فلما أن كثر الفساد، وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع، والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد، فأكثرُوا فيها الفساد» (٢).

وذكر الله سبحانه إهلاك الأمم السابقة بسبب طغيانهم وعتوهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأَوَّلَ (٥٠) وَثَمُودًا مَّا أَتَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى (٥٢)﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

فأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشد طغياناً وتمرداً على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان

عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتْنٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً، ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تقول إليه» (١).

ويسلي الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبين له مصير الطغاة المجرمين، فيقول سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَفُ وَلَا يُرْذُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فهذا الوعيد الشديد بذكر مصير أهل الفسق والطغيان يجعل من الإنسان المسلم شخصية خائفة من ربها تبارك وتعالى، مجتنباً كل الأسباب الموصلة إلى الطغيان؛ لأن الله قد حذر منه، وذكر مصير أهله.

ثالثاً: الحث على الاعتبار بالسابقين:

يقص الله تبارك وتعالى علينا قصص الطغاة، وما حل بهم النكال والعذاب لأجل التسلية، وإنما لأجل أخذ العبرة من هذه القصص، وحتى لا تقع في طغيانهم وضلالهم، وسأتناول شيئاً من قصص الأمم السابقة التي طغت وتكبرت على الخالق

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٤.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٢.

طغيانهم أكثر طغياناً من غيرهم من الأمم ^(١).
وكان عاقبتهم: ﴿فَنَحْنُ أُولُو السَّمَلَةِ يَمْلِكُو
مُنْبِيرٍ ۝ وَفَعَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى
أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢].

وأخبر تبارك وتعالى عن مصير
الطغاة المكذبين بأنبيائهم، فقال سبحانه:
﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ
مَنْسُكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا
مُصْتَبِرِينَ ۝ ٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ
وَهَمْدَكَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثُؤنُونَ بِالْبَيِّنَاتِ
فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ
۝ ٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ
مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

«هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال
وأَسباب البقاء والغلبة، قد أخذهم الله
جميعاً بعد ما فتنوا الناس وأذوهم طويلاً.
فعاد أخذهم حاصب، وهو الريح
الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض،
فتضربهم وتقتلهم، وثمود أخذتهم الصيحة،
وقارون خسف به وبداره الأرض، وفرعون
وهامان غرقا في اليم، ذهبوا جميعاً مأخوذِينَ
بظلمهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾» ^(٢).

وذكر لنا تبارك وتعالى طغيان قوم صالح
عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِطْفُولِهَا ۝ ١١﴾ إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا ۝ ١٢﴾ فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ ١٣﴾
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ ١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾
[الشمس: ١١-١٥].

قال الطبري: «الطاغية طغيانهم الذي
طغوا في معاصي الله، وخلاف كتاب
الله» ^(٣).

وقصّ الله علينا قصة أصحاب الجنة لما
طغوا وتغطرسوا على عباد الله الضعفاء،
ومنعوهم حقهم من الصدقات، ولم يشكروا
الله تعالى على نعمه عليهم، جاء العذاب،
ونزعت النعمة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ ١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۝ ١٨﴾ فَطَافَ
عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ ١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ
۝ ٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ ٢١﴾ أَيْنَ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ۝ ٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ۝ ٢٣﴾ أَلَا يَدْخُلُهَا
الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ۝ ٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ ۝ ٢٥﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ۝ ٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ ٢٧﴾ قَالَ
أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأْ قُلُوبَنَا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُونَ ۝ ٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٧٣٥-
٢٧٣٦.

(٣) جامع البيان ٢٣/٢٠٨.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/٥٥٣.

فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَذَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ [القصص: ٣٨-٤٠].

ويصف لنا ربنا - جل جلاله - هذا
الطاغية المتجبر، وإذلاله لموسى عليه
السلام ولقومه، وعدم مبالاته بهم، فقال
تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَاشِعِينَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَهُمْ لَنَا لِقَاطُونَ
﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

فكانت النتيجة: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا
بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٧-٦٢].

فهذه القصص وغيرها في كتاب الله
تبارك وتعالى لم يقصها الله علينا إلا لأخذ
العظة والعبرة منها، فنبتعد عن الطغيان
وصفات الطغاة.

إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ
﴿٣٠﴾ قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا
خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

فالله تبارك وتعالى يسوق إلى قریش
هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو
متداول بينهم من القصص، فيربط بين
سنته في الغابرين، وسنته في الحاضرين،
ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع
حياتهم^(١).

ولما طغى قوم عاد وتكبروا، وقالوا
لنبيهم استهزاء واستهتاراً: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي
أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلُوهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وقال تبارك وتعالى مخبراً عن فرعون:
﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ
غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْدِمُنِّي عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ
لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَاسْتَكَبَرَ هُوَ
وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْتَرِ الْحَقُّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٦٦٦.

أسباب الطغيان

لوقوع الطغيان من الإنسان أسباب
نتناولها فيما يأتي:

أولاً: الحسد:

مما يوقع الإنسان في الطغيان فيتجاوز الحدود: إصابته بداء الحسد، فهو الداء العضال - إن أصاب الإنسان - وهو «مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...»، ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل^(١).

ومن هنا فقد ذمّه الله تعالى في كتابه في غير موضع، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال القرطبي: «وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذي ذمّه الله تعالى»^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِيكُمْ عَلَى بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٥١/٥.

(٢) المصدر السابق ١٦٣/٥.

ثانياً: الحسد:

«فنهى الله سبحانه المؤمنين عن التمني؛ لأن فيه تعلق بال، ونسيان الأجل، والمراد النهي عن الحسد: وهو تمني زوال نعمة الغير، وصيرورتها إليه، أو لا تصير إليه»^(٣).

وورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٤).

فالحسد الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره مئة، أو أسبغ عليه نعمة؛ فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود، ورفضهم قبول رسالة النبي مع أنه مكتوب عندهم في التوراة، فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله على الرسالة، وحسدهم لأصحابه على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٤٥/٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، ١٩/٨، رقم ٦٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ١٩٨٥/٤، رقم ٢٥٦٣.

والخلاصة: أن الحسد يدفع بصاحبه إلى الطغيان، وتجاوز الحدود، وقد يصل به الأمر إلى الكفر بالله سبحانه، وتكذيب الرسالة، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: العجب والغرور:

العجب والغرور هو آفة الطغاة في عتوهم وتجبرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له؛ ولذلك قال الله عز وجل ذاكراً حال قوم عاد لما طغوا وتكبروا على ربهم، ثم على نبيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

«أي: منوا بشدة تركيبيهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله» (٤). قال سيد رحمه الله: «إن الحق أن يخضع العباد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، استكبروا واغترروا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنها بديهة أولية، إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة؛ لأنه

مَالِ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» [النساء: ٥٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا من قبائح اليهود وحسدكم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله» (١).

ولاشك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَيْدَهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بالطغيان: الغلو في إنكار ما قد علموا صحته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتمادي في ذلك» (٢).

«فسبب من الحقد والحسد، ويسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانًا وكفرًا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان لابد أن يشتطوا في الجانب المقابل، ولا بد أن يزيدوا تبجحًا ونكرًا، وطغيانًا وكفرًا، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين، ووبالًا على المنكرين» (٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٨٢.

(٢) جامع البيان، ٤٥٧/١٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٩٢٩/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٦٩/٧.

هو الذي مكن لهم في هذا القدر المحدود من القوة، ولكن الطغاة لا يذكرون: ﴿وَكَاوُوا بِأَيْدِينَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] ^(١).

«ويبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفته وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهد الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿يَنْقُورُ آلِيسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] ^(٢).

ولم يكتف بهذا العجب، بل زاد عليه احتقاراً للموسى عليه السلام: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

يقول تعالى مخبراً عن قول فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه، وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟ ^(٣).

ويستعرض قارون ملكه وقوته أمام

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٧.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٧.

الجماهير المنبهرين بزينة الحياة الدنيا، ويخرج على قومه في أبهة، يقول سبحانه مبيّناً ما كان عليه من العجب والغرور: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

«أي: فخرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر من مراكب وخدم وحشم، مريداً بذلك التعالي على الناس، وإظهار العظمة؛ وذلك من الصفات البغيضة، والافتخار الممقوت، والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع، وتفسد نظمه، وتفرّق شمل الأمة، وتقسّمها طبقات، وفي ذلك تخاذلها، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها» ^(٤).

ثالثاً: العناد والكبر:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: العناد، فالطاغية يعرف تمام المعرفة أنه على باطل، غير أنه يترك الحق ويكابر عناداً وكبراً وعلوّاً، وقد قصّ الله سبحانه علينا في كتابه ما يدل على هذه الحقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَِا وَاسْتَفْتِنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(٤) تفسير المراغي ٢٠/ ٩٧-٩٨.

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

«بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا، عنادًا وحسدًا»^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي ومقاتل: هذا في المعاندين الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه غير كاذب فيما يقول، ولكنهم عاندوا وجحدوا^(٥).

وإن من أبرز الشخصيات التي تمثل هذا الكبر والعلو شخصية الطاغية فرعون، فقد مارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

«أي: تكبر وتجبر وطمع»^(٦). وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

«المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار: التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات»^(٧).

«أي: تيقنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحرًا، ولكنهم كفروا بها، وتكبروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين»^(١).

وفي تفسير المنار: «أي: عاندوا موسى عليه السلام عنادًا بإظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض»^(٢).

وبين تبارك وتعالى أن التخويف للطغاة لا يزيدهم إلا طغيانًا على طغيانهم، وعنادًا على عنادهم، وكبرًا على كبرهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

«أي: نخوفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانًا متجاوزًا للحد، متماديًا غاية التمادي، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال، ولكننا قد قضينا بتأخير العقوبة»^(٣).

وأخبر سبحانه أن كفار قريش لم يكونوا يكذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/١٦٣.

(٢) المنار، رشيد رضا ٩/٤٧١.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/٢٨٤.

(٤) جامع البيان، الطبري ١١/٣٣١.

(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/٢٦٥.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٢٢٠.

(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/٢٠٠.

رابعاً: الرفاهية والإسراف في الشهوات:

لم يرد الإسراف في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم، فقد نهانا المولى سبحانه عن الإسراف، وأخبرنا أنه لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].
[الأعراف: ٣١].

وأمرنا سبحانه بعصيان أمر المسرفين، فقال: ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

فأهل الإسراف في بعد عن الهداية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي قرب من الضلال ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ومن كان هذا حاله فمصيره إلى العذاب في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].
والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

والإسراف صفة ملازمة للطغاة، ومسلكتهم في الحياة دليل شاهد، وهو ملازم للعلو؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَفِرُّونَ لِمَا فِي الْأَرْضِ وَلِئِنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: «وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل؛ وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعائه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»^(١).
وقال الألوسي: «أي: المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام»^(٢). «ومن هذه حالته لا يزعجه عن إلحاق الضرر بأضداده وازع»^(٣).

«أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه»^(٤).

ويقول جل وعلا: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقد أخبر تبارك وتعالى عن صفات الطغاة من أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل^(٥). فالترف والتنعم هو السبب الذي أقحمهم ابتداء في الطغيان والاستكبار، ومن ثم إلى نار جهنم، وبئس المصير.

(١) جامع البيان، ١٥/١٦٧.

(٢) روح المعاني، ٦/١٥٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/٢٦٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/٢٥٥.

(٥) المصدر السابق ٧/٥٣٨.

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين»^(١).

خامساً: الاستغناء:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: الغنى، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما بسطت الدنيا لعبد إلا طغى كائنًا من كان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافٍ﴾ [العلق: ٦-٧].

فأخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله^(٢).

وكان سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقليل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعقرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقليل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخذلًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً) قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافٍ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٤-

٣٢٦٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

وذكر تبارك وتعالى أن من صفات الطغاة المستكبرين الاستمتاع بالحياة الدنيا ولذتها دون النظر إلى أمور الآخرة، والعمل لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّبْتُمْ لَطَيْفَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

«فقد كانوا يملكون الطيبات إذن، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يذخروا للآخرة منها شيئاً، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساباً، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثم كانت لهم دنيا، ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللذات الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله! ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق، فالكبرياء لله وحده، وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض، فجزاء الاستكبار الهوان، وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضاً، فإن

لِطَغَى^(١).

«والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان، والتعريف في الإنسان للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطمح إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه...، والطغيان: التعاضم والكبر، والاستغناء: شدة الغنى، فالسبن والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

و﴿أَن رَّاهُ﴾ متعلق بـ(يطغى) بحذف لام التعليل؛ لأن حذف الجار مع (أن) كثير شائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنياً.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقاً حيث لا وازع يزع من دين، أو تفكير صحيح، فيطمح على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (كلا إن الإنسان ليطغى)، ٢١٥٤/٤، رقم ٢٧٩٧.

فقد بينت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبتت على الحذر من تغلغلها في النفس^(٢). ومن أبرز قصص القرآن التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالمال، قصة قارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤْبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

«هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها (قارون) وتحدد قومه (قوم موسى) وتقرر

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/٤٤٤-٤٤٥.

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٢﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦].

فهما جنتان مشمرتان من الكروم،
محفوظتان بسياج من النخيل، تتوسطهما
الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر
البهيج، والحيوية الدافقة، والمتاع والمال.

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمِ وَتَهُ
شَيْئًا﴾ ويختار التعبير كلمة ﴿تَظْلِمِ﴾ في
معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين
وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر،
وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه
بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو،
ويتنفش كالديك، ويختال كالطاووس،
ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ
وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين،
وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد
نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛
وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا،
أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد
هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب
الجنان في الدنيا، فلا بد أن يكون جنباه
ملحوظًا في الآخرة!

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا
أَظُنُّ أَن يَبِيدَ هَٰذَا أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا

مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي ﴿فَبَعَثَ
عَلَيْهِمُ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو
الشراء ﴿وَمَا آيَنْتَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوزُ
بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ ثم تمضي بعد ذلك في
استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات
التي صاحبها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فاتاه الله
مالًا كثيرًا، يصور كثرته بأنه كنوز، والكنز
هو المخبوء المدخر من المال الفائض
عن الاستعمال والتداول، وبأن مفاتيح هذه
الكنوز تعبى المجموعة من أقوياء الرجال،
من أجل هذا بغى قارون على قومه، ولا
يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل
شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم
وغصبهم أرضهم وأشياءهم، كما يصنع
طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى
عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال^(١).
ومن أبرز قصص الطغيان في القرآن قصة
صاحب الجنتين.

قال سبحانه: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ
جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا
وَلَمْ تَظْلِمِ وَتَهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿٣٣﴾
﴿وَكَانَ لَهُ نَصْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ
مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ
ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبِيدَ هَٰذَا أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٤٤٢.

مُتَقَلِّبًا ﴿[الكهف: ٣٥-٣٦].

«إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والشرأ أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملا الأعلى! فما داموا يستطيعون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!»^(١).

ومن القصص التي تبين أن الاستغناء سبب من أسباب الطغيان قصة أصحاب الجنة ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَوْا بِصِرْمَةٍ مِّنْ صَّيْرِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالْعَصِيرِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَا مُصِيرِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأُطْلِقُوا وَهُمْ يَخْلِفُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَا عَلَىٰ حَرْدٍ قٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبِّحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بُولٰتِنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يَتُوبَ إِلَيْنَا خَيْرًا مِنَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رٰغِبُونَ ﴿[القلم: ١٧-٣٢].

ومن القصص التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالقوة الجسدية قصة عاد:

﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿[فصلت: ١٥].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا عَادُ﴾ قوم هود ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على ربهم وتجبّروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله، يقول: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون^(٢).

سادسًا: الأولاد:

حذر الله تبارك وتعالى في كتابه من فتنة المال والولد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿[التغابن: ١٥].

فهذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفوس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده وحذّره أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغبتهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/٤٤٤.

(١) المصدر السابق ٥/٦٤.

مؤمنان وطاغ كافر»^(٢).

وقال القرطبي: «والمعنى: أن يلقيهما

حبه في اتباعه، فيضلا، ويتدينا بدينه»^(٣).

وقال ابن كثير: «أي: يحملهما حبه على

متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به

أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو

بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء

الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له

من قضائه فيما يحب»^(٤).

وقال سيد رحمه الله: «فهذا الغلام الذي

لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق

القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقة

للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ،

تكنم في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد

على الزمن بروزاً وتحققاً، فلو عاش لأرهمق

والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما

بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله

ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام

الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلها

الله خلفاً خيراً منه، وأرحم بوالديه، ولو كان

الأمر موكولاً إلى العلم البشري الظاهر لما

كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان

له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما

يستحق عليه القتل شرعاً، وليس لغير الله

ولمن يطلعه من عبادته على شيء من غيبه أن

(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٥.

العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا
الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية^(١).

وأخبر تبارك وتعالى أن الولد قد يكون

سبباً في الكفر، فقال: ﴿وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ أَبَوَاهُ

مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

[الكهف: ٨٠].

قال الألوسي: «فخشنا خوفاً شديداً أن

يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حياً طغياناً

مجاوزه للحدود الإلهية، وكفراً بالله تعالى؛

وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته، كما

روي عن ابن جبير، ولعل عطف الكفر على

الطغيان لتفطيع أمره، ولعل ذكر الطغيان مع

أن ظاهر السياق الاختصار على الكفر ليتأتى

هذا التفطيع، أو ليكون المعنى: فخشنا أن

يدنس إيمانها أولاً، ويزيله آخرًا، ويلتزم

على هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من

إزالته بدون سابقة تدنيس، وفسر بعض

شراح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي:

علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر،

فيعجبه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما

إياه، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما طغياناً

عليهما، وكفراً لنعمتهما عليه من تربيتهما

إياه، وكونهما سبباً لوجوده بسبب عقوقه،

وسوء صنيعه، فيلحقهما شر وبلاء، وقيل:

المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرن بإيمانهما

طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٨.

يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكماً غير حكم الظاهر الذي تأخذه الشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد^(١).

سابعاً: الاستخفاف وغفلة الناس:

يمارس الطغاة على مر العصور وسيلة الاستخفاف بالجماهير.

يقول تبارك وتعالى عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له»^(٢).

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي: حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله، وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذبوا موسى»^(٣).

وقال سيد رحمه الله: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل

استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين، وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾^(٤).

وقد بلغ فرعون من الخفة والاستخفاف بقومه أن قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُ﴾ [النازعات: ٢٤].

«قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجرا وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم.

فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٣٢.

(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤١.

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

قاتلوهم كأنهم بغاة، والحاصل أن العوام يذبّحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل»^(٢).

«والطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية»^(٣).

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفاء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخذعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرراً ولا رشداً! فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرّوه به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ **الْأَعْلَى** ﴿وما كان ليقولها أبداً لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً!﴾^(١).

يقول الكواكبي رحمه الله: «فالعوام هم قوت المستبدّ وقوّته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة، ويهينهم فيشون على رفعتهم، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه: إنه كريم، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة،

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص ٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣.

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨١٥.

مظاهر الطغيان وآثاره

للطغيان مظاهر وآثار نتناولها فيما يأتي:

أولاً: الضلال والعمى:

أهل الطغيان «يذهبهم الله سبحانه
يخبطون على غير هدى، في طريق لا يعرفون
غايتها، واليد الجبارة تلتقفهم في نهايتها،
كالفران الهزيلة تتوالب في الفخ، غافلة
عن المقبض المكين، وهذا هو الاستهزاء
الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير»^(١).

قال الله سبحانه عن أهل النفاق والطغيان: ﴿اللَّهُ يَسْتَرْزِيْهِمْ وَيَسْخَرُ مِنْهُمْ وَيُسَخِّرُ لَهُمْ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْجَنِّ وَالنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ وَالْطَّيْرِ وَالْمَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ سَخَّرَ لَهُمْ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَجْهَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ [البقرة: ١٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿يَسْتَكْمِلُنَّ﴾ قال: يزيدهم ﴿فِي طَافِقِينَهُمْ يَمْتَحِنُونَ﴾ قال: يلعبون ويترددون في الضلالة^(٢).

«والصواب: يزيدهم على وجه الإملاء
والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال:
﴿وَقُلِّبْ أَفْعَدَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا
بِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾
[الأُنعام: ١١٠]» (٣).

«ومن يكتب الله عليه الضلال - وفق سنته تلك - يظل في طغيانه عن الحق، وعماء عنه أبداً ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما

في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق، وأسرار الوجود، وشهادة الأشياء -التي يوجههم إليها في الآية السابقة- وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة، وحيثما فتحت العين وقعت على آية، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به لمس الإعجاز في تكوينه، وفيما حوله من شيء، فإذا عمه -أي: عمي- عن هذا كله ترك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار»^(٤).

وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

«يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركى النظر في حجج الله والفكر فيها لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم، فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدهم في تماديهم في كفرهم وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التى كتبها الله

(۱) في ظلال القرآن، سيد قطب ۱/ ۴۵.

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/١٦٩.

(۳) تفسیر القرآن العظیم، ابن کثیر ۱/ ۱۸۴.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١٤٠٧/٣.

بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! إن مصارع المكذبين - كما يعرضها هذا القصص - تجري على سنة لا تبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده، والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء، واستهزاء بالإنذار، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصراع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ! (٣).

وقد بلغ بأهل الطغيان والباطل في محاربة الحق أن أوصى بعضهم بعضاً بعدم السماع لهذا القرآن، واقترحوا وسيلة لمحاربة كتاب الله، وهي التشويش واللغو. قال سبحانه ويحمده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَافِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

«أي: لا تسمعه ﴿وَالْقَوَافِ﴾ أي: عارضوه باللغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة، وكان الكفار يوصي بعضهم بعضاً: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تلبسوا عليهم قولهم، وقال مجاهد: ﴿وَالْقَوَافِ﴾ فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى

لهم من عقوبته، وأليم نكاله» (١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَحَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُفَيْنِيمٍ بَعْمُوتٍ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: فترك الذين لا يرجون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه، متحيرين لا يهتدون سبيلاً للخروج منه (٢).

ثانياً: محاربة الحق، وتكذيب الأنبياء والدعاة:

مجرد ما يسمع أهل الطغيان الرسالة الربانية حتى يهرعوا لاستخدام الحجة التي طالما استخدمها من قبلهم، وهي اتهام الدعاة المخلصين بالكذب والدجل؛ ليبرروا لأنفسهم قمعهم ومحاربتهم وقتلهم.

وليس غريباً أن يتعرض الأنبياء الصادقون، أصحاب المنهج الرباني السليم للتكذيب والمعاداة، يقول سيد قطب رحمه الله: «فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم...، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا يتنفع اللاحق منهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/٢٩١.

(٢) انظر: المنار، رشيد رضا ١١/٢٥٦.

(٣) في ظلال القرآن ٣/١٣٠٦.

كَلَّ نبي من الأنبياء لأدلة تثبت صدق دعوته وريانيته.

والخلاصة: أن أهل الطغيان يتهمون دعاة الإصلاح بالكذب والدجل، وأن دعوتهم وإن كانت في خارجها صالحة فإنها في باطنها خبيثة باطلة.

ثالثاً: إيثار الدنيا على الآخرة:

من أبرز مظاهر الطغيان نسيان الدار الآخرة، وإيثار الدنيا عليها، فيشعر الطاغية أنه خالد مخلد في هذه الحياة، وينسى الآخرة والبعث والنشور والجنة والنار، يقول تبارك وتعالى مذكراً بمصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩)﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فإذا اجتمع الغنى مع نسيان الآخرة، وإيثار الحياة الدنيا، فإن الثمرة لهذا الاجتماع المشثوم هو الطغيان، قال سيد رحمه الله: «والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حساباً، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان

الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيسكتون»^(١).

وقريباً من هذا المعنى قوله جل وعلا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصْوَعُ فِي مَا ذُنُوبِهِمْ وَأَنسَوْنِي أَنذَرْتُهُمْ وَاصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ [نوح: ٧].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرِيدُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرِيدُ أَنْ جَعَلَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبْدُؤَ الرَّأْيَ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عن قوم عاد: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]. وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال عن أصحاب القرية: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال عن قوم ثمود: ﴿أَلَمْ يَلْقَ الدَّكْرَ عَلَيْهِمْ يَبِينَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فرغم اختلاف هؤلاء الأقوام واختلاف الأنبياء إلا أن الموقف واحد، هو التكذيب والرفض الواضح للدعوة، رغم ما حمله

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠.

وَضَمِيرُهُ، فَإِذَا أَهْمَلَ حِسَابَ الْآخِرَةِ، أَوْ آثَرَ عَلَيْهَا الدُّنْيَا اخْتَلَّتْ كُلُّ الْمَوَازِينِ فِي يَدِهِ، وَاخْتَلَّتْ كُلُّ الْقِيَمِ فِي تَقْدِيرِهِ، وَاخْتَلَّتْ كُلُّ قَوَاعِدِ الشُّعُورِ وَالسُّلُوكِ فِي حَيَاتِهِ، وَعَدَّ طَافِيًا وَبَاطِنًا، وَمَتَجَاوِزًا لِلْمَدَى^(١).

وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الْإِسْلَامَ يَرْفُضُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَرِيدُ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ أَنْ تَصْبَحَ بِمَتَاعِهَا وَلَذَاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَإِمْكَانَاتِهَا إِلَهًا مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ لِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ مِنْ قَدَمِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَنَحْمِلُهَا عَنْهُمْ لَا يُبْخَسُونَ ۚ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِعْرَاضِ عَمَنْ طَغَى وَتَعَلَّقَ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ وَآثَرِهَا عَلَى الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قَالَ سَيِّدُ رَحْمَةِ اللَّهِ: «هَذَا الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَمَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَزَلْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ، وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مُوجَّهٌ ابْتِدَاءً إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَهْمَلَ شَأْنَ أَوْلَئِكَ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ سَبَقَ الْحَدِيثُ فِي السُّورَةِ عَنْ أَسَاطِيرِهِمْ وَأَوْهَامِهِمْ، وَعَدَمَ إِيمَانِهِمْ بِالْآخِرَةِ.

وَهُوَ مُوجَّهٌ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَوَاجِهُهُ مَنْ يَتَوَلَّى عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَيَعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَيَجْعَلُ وَجْهَهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا، لَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ وَرَاءَهَا، وَلَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ، وَلَا يَحْسِبُ حَسَابَهَا، وَيَرَى أَنَّ حَيَاةَ

وَانْظُرْ إِلَى سِحْرَةِ فِرْعَوْنَ حِينَ دَخَلَ قُلُوبُهُمُ الْإِيمَانَ كَيْفَ نَظَرُوا إِلَى قَوْمِهِ وَمُلْكِهِ وَجَنَدِهِ وَدُنْيَاهُ، وَقَدْ هَدَّاهُمْ بِمَا هَدَّاهُمْ، فَ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَمِينِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِيٌّ﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

فَالْمَطْلُوبُ مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْرِّرَ إِرَادَتَهُ، فَلَا يَصْبِحُ وَيَمْسِي مُجَرَّدَ مُرِيدٍ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا. يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۚ﴾ وَمَنْ أَرَادَ

(١) فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ ٦/ ٣٨١٨.

يؤمنون بالله، ولا يبتغون شيئاً وراء الحياة الدنيا، فمهما كان شأنهم فهم محبوبون عن الحقيقة، قاصرون عن إدراكها، واقفون وراء الأسوار، أسوار الحياة الدنيا»^(١).

والخلاصة: أن إثارة الحياة الدنيا أساس كل بلوى، فعن هذا الإثارة ينشأ الإعراض عن الذكرى، والطغيان على أوامر الله تعالى، وعباد الله الصالحين.

رابعاً: الإفساد في الأرض:

إن الهدف الأسمى والأبرز للطاغية هو أن يحافظ على منصبه، دون أن ينازعه أو يعترض على حكمه أحد، وهو لذلك يدرك تماماً أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا في بيئة فاسدة، فالطغيان كالفيروس لا ينمو ولا يتكاثر إلا في البيئات العفنة.

ف«الحكام الطغاة كالحشرات القذرة، لا تعيش أبداً في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة، والجهالة القائمة»^(٢).

يقول الكواكبي رحمه الله: «لا يخفى على المستبد أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلامه جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل،

الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالأخرة لا يستطيع أن يشغل باله -فضلاً على أن يعامل أو يعايش- من يعرض عن ذكر الله، وينفي الآخرة من حسابه؛ لأن لكل منهما منهجاً في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته، ولا في نقطة واحدة من نقاطه، وجميع مقاييس الحياة، وجميع قيمها، وجميع أهدافها، تختلف في تصور كل منهما، فلا يمكن إذن أن يتعاونوا في الحياة أي تعاون، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض، مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها، وغاية هذا النشاط، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين، فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبت حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا، وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

على أن للإعراض اتجاهًا آخر هو التهوين من شأن هذه الفئة، فئة الذين لا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٠.

(٢) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص ٨٢.

﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتناول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد^(٥).

وقد وصف تبارك وتعالى رأس الطغيان -فرعون- في أكثر من آية بأنه من المفسدين. قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعِي آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: «إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبره في الأرض على أهلها،

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل^(١).

فالطاغية لا يرضى إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئاً روحانياً له في أعصاب الناس أثر من الوقار^(٢).

وكان بين الطاغية وبين الرذيلة عهد وميثاق: أن يقوم هو بحمايتها مقابل أن تعرف له صنيعه فتحميه^(٣).

«فالطاغية في نسبته إلى رعيته كالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم^(٤).

ومن هنا نفهم سر وصف القرآن الكريم للطغاة بالمفسدين.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْأَعْمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢].

فالفساد نتيجة طبيعة ومباشرة للطغيان، يقول سيد رحمه الله معلقاً على الآيات السابقة: «هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص ٥٠.

(٢) انظر: وحي القلم، الرافعي ٢/ ٢١٨.

(٣) وحي القلم ٢/ ٢٣٧.

(٤) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص ٥٠.

أساليب الطغاة

للطغاة في محاربة الحق أساليب تتناولها فيما يأتي:

أولاً: إلباس الحق بالباطل:

من طبائع الطغاة وأساليبهم إلباس الحق بالباطل، وقلب الحقائق الواضحة الجلية وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصفة فيهم إيضاحاً كافياً شافياً.

فترى الطغاة يحيلون الحق باطلاً، والباطل حقاً، وإذا بالرسول المرسل ساحر، وإذا بالمجرم الظالم الطاغية إمام عادل.

قال تبارك وتعالى مبيّناً حقيقة هؤلاء القوم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ إِلَهُنَّ ۚ﴾ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ [يونس: ٧٦-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

«فكلمة الحق، وتوحيد الله، والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني، ولا أن يرفع

وتكبره على عبادة ربه»^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْكَافِرِينَ ۖ وَكَانَتْ مِنْ قَبْلُ وَكَانَتْ مِنْ أَتَمِّ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك^(٢).

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض، يعني: فرعون وملأه؛ إذ ظلموا بأيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعاً في البحر»^(٣).

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/٥١٧.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/٥٣٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/١٣.

والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان، واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»^(٣).

«وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»^(٤).

ثانياً: تعليل ما هم عليه من الغنى والجاه لأسباب ذاتية:

من طبيعة الطاغية أن ينسب النعم التي امتن الله بها عليه إلى أسباب ذاتية، فيزعم أنه حصل عليها بحذقه وذكائه، وورثها كابر عن كابر.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قال سيد رحمه الله: «إنما أوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون

أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!»^(١).

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقيح السيئات^(٢).

وهذه الوسيلة قد استخدمها الطغاة. قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلِيرٌ أَوْ يَحْنُونُ﴾ ﴿٥٥﴾ أَتَوَاصُوا بِبَلِّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد قال الطاغية فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيًّا أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فأراد قتل موسى تحت مبرر الخوف على تبديل الدين، والخوف على البلاد من الفساد والدمار الذي سيحدثه موسى -بزعمه- «أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي؟ إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٦.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٧.

يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لثيم، وفي بطر ذميم.

ومن ثم جاء التهديد قبل تمام الآية، ردًا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿أَوَلَمْ يَسْلَمْ أَحَبُّ إِلَهِ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصاص: ٧٨].

فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالًا كانت أشد منه قوة، وأكثر مالًا، وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي، فليعلم؛ وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد! (١).

وأخبر تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال: ﴿الْيَسَّ لِي مَلِكٌ وَهَئِذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

فأخبر سبحانه عن فرعون وطغيانه وعناده أنه نادى في قومه متبجحًا مفتخرًا مغرورًا بملك مصر وتصرفه فيها: أليس لي ملك مصر لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني فيه مخالف، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أنهار النيل وفروعه، وهي تجري من تحت قصري، أو بين يدي في جناني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وما يظن فرعون

في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء.

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجًا معينًا للتصرف في الملكية الفردية - كما يفرض منهجًا لتحصيلها وتنميتها - وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقدير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾
[غافر: ٢٨].

فلما سمع فرعون هذا الكلام أفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، من خالفني فهو على باطل. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإذا تأملنا هذه الكلمات التي قالها فرعون وجدناها تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي الذي كان يحمله الطاغية فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ فلا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يمكن لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا نظر إلا نظره، فهو على الصواب وغيره على الخطأ، وهو المبصر، وهم العميان.

ولا هداية إلا ما يراه هو، كلامه رشاد، وكلام غيره غي، هو كل شيء، وغيره لا شيء، يقول سيد رحمه الله: «إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً، وأعتقد نافعا، وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟»^(١).

أن تبعد هذه أبداً، وما قد مكن له من الدنيا استدراجاً من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده، وحول منه وقوة، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، وهذا أشد الوهم من فرعون؛ إذ خيل إليه أن ما قاله حجة مقنعة لقومه، وهذا هو حال الطغاة المجرمين.

ثالثاً: كل من خالفهم فهو على الباطل:

قد يظهر الطاغية حرصه على المشورة في الأمور، ويستشير ملاءه المقربين منه؛ لتتمام معرفته أنهم لن يخالفوا له رأي، فهذا فرعون يستشير قومه في قتل موسى، وهو الذي قتل في بني إسرائيل وأثخن، قال الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يخطر على باله على الإطلاق أن أحداً سيعترض عليه في قتل موسى، فلسان حاله: أنا لم أجعلكم في هذه المنزلة، وأمنحكم هذه الرتبة لتعترضوا علي، بل لتأمنوا على ما أقول، أنسيتم أني ربكم الأعلى؟

فاعترض عليه أحد الحاضرين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠.

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «رأى أن يستخف قومه فيتابعوه؛ ليقم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به، مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكَ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله لكان الشر أهون؛ ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال^(١).

«فالطاغية يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها من النطق بالحق والتعدي لمطالبته^(٢).

«إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته^(٣).

«فالحاكم المجرم يريد جواً يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خباياه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى؛ لذلك من خصائص

الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه^(٤).

رابعاً: الاستهزاء:

من وسائل الطغاة الاستهزاء، واحتقار الصالحين، وقد حكى الله تبارك وتعالى لنا في كتابه ما كان عليه أهل الطغيان من استهزاء بالأنبياء المرسلين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

فعلى هذا النحو الذي تلقى به المكذبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم، يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به^(٥).

وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

واستهزأ قوم نوح عليه السلام به: ﴿وَكَلَّمَا مَرْءَ عَلَيْهِمْ مَلَأَيْنِ قُوْمَهُمْ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٣٧.

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص ٣٣.

(٣) فرعون والطغيان السياسي، أحمد بهجت ص ٨.

(٤) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص ١٤٦.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/٤٢٩.

نزلت على رجل مثله، واقترحوا أن تكون الرسالة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«والواقع أن السخرية والاستهزاء من أمضى أدوات النفوذ والتأثير على الآخرين؛ ذلك أنها من أشد الأمور إيلاماً لأصحاب المروءة، فتحجزهم عن كثير من المواقف تحاشياً أن يقعوا في مثار سخرية أو موضع استخفاف؛ ولذلك نبه الله الرسل والمصلحين على استغلال خصوم الدعوات الإلهية لهذه السلطة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فَخَافَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١] ﴿٢﴾.

خامساً: اتهام المصلحين بالتهم الكاذبة، والتحريض عليهم:

الملاحظ على الطاغية قيامه بحملة تحريضية كاذبة واسعة النطاق ضد المصلحين، فهذا فرعون وقومه اتهموا موسى عليه السلام بسعيه إلى الاستيلاء على الأرض والوطن، قال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص ١٦٣.

وقالوا لنبيهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنرَبِّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

واحتقر فرعون موسى عليه السلام ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقال عن قوم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦].

والمتمائل يدرك أن فرعون كاذب في دعواه؛ إذ لو كان الأمر كذلك فلم جمع لهم خيله ورجله، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه، وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله -بزعمه!- إلى التعبئة العامة، ولا بد إذن من التهوين من شأن المؤمنين ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فقيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!»^(١).

وقد احتقر كفار قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستبعدوا أن تكون الرسالة

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٨.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٠٩﴾
[الأعراف: ١٠٩-١١٠].

وقال: ﴿قَالَ أَحِبَّنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِكَ يٰمُؤْمِنِينَ﴾ [طه: ٥٧].

فهم «بصرحون بالنتيجة الهائلة التي
تتقرر من إعلان تلك الحقيقة، إنها الخروج
من الأرض، إنها ذهاب السلطان، إنها إبطال
شرعية الحكم، أو محاولة قلب نظام الحكم
بالتعبير العصري الحديث»^(١).

كما أن الطاغية يسعى جاهداً إلى اتهام
كل مصلح بالتآمر على البلاد والعباد، قال
سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا
مِنْهَا ءَآهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

«أي: إن هذا الصنيع الذي صنعتوه أنتم
وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس
إلا مكرًا مكرتموه في المدينة؛ بما أظهرتم
من المعارضة والرغبة في الغلب عليه، مع
إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته، زاد في
سورة طه ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُذِّبَ إِلَيْهِ عِلْمُكُمْ السِّحْرُ﴾
[طه: ٧١].

فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة؛
لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين
بسحركم -وهو ما كان اتهم به موسى
وحده- ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما

هو لنا الآن من الملك والكبرياء»^(٢).

كما أن الطاغية يحرص غاية الحرص
على إظهار المخالفين له بمظهر الحريصين
على النفوذ والسلطة.

قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَاءَكُمْ سِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَصًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ
لَكُمْ ءَلِكِرْيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾
[يونس: ٧٧-٧٨].

وهذه الوسيلة التي استخدمها فرعون
للتشكيك في دعوة موسى عليه السلام
استخدمتها قريش لصرف الناس عن دعوة
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَٱفْلُتَاقَ ٱلْمَلَآئِكَةِ إِنِّ ٱمْشُواْ
وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰ ءَآلِ ٱلْهَكْمَةِ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦٦﴾
[ص: ٦٦].

أي: «إن هذا القول الذي يقول محمد،
ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء
يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا،
وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبه إلى
ذلك»^(٣).

سادسًا: الترغيب:

قد يستعمل الطاغية أسلوب الإغواء
ويمارسه على ضعاف النفوس؛ وذلك أن
الطاغية يملك المال والمنصب والجاه،

(٢) المنار، رشيد رضا ٦٣/٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥٢/٢١.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/١٣٤٨.

فرغم جبروت فرعون وطغيانه إلا أنه جعل للناس يوم عيد يتفرغون فيه من أشغالهم، ويلبسون أجمل ثيابهم، وفيه يلهون ويمرحون «والجماهير دائماً تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفتن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس»^(٣).

وقد يلجأ الطاغية إلى التواضع للناس، فهذا فرعون الطاغية يستشير الناس في أمر فرعون، فيقول: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

«فيبدو تضعضه وتهويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر.

ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم

فيغريهم بالمال الوفير، وقد بين لنا القرآن الكريم كيف استخدم الطغاة هذه الوسيلة. قال سبحانه: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [١١٣-١١٤].

فأكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القريب منه؛ زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد^(١).

وربما سعى الطغاة جاهدين لشغل الناس بأمور تافهة، وقضايا جانبية، وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام الطغاة لهذا الأسلوب في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِيَّ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَنْبَغُ الْأَسْبَبِ﴾ [٣٦] ﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِيبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

كما أن الطاغية يدرك تمامًا أن الضغط على الناس يولد الانفجار، فيسعى جاهداً إلى طريقة لينفّس بها عن الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة في قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُحًى﴾ [طه: ٥٩].

«يعني: يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه»^(٢).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٤.

جبابرة مستبدون ظالمون! (١).

الترهيب:

من أبرز وسائل الطغاة وتضليلهم على الناس: إرهاب كل من تسول له نفسه المساس بمناصبهم، فيحاول الطاغية أن يظهر بمظهر القوة، ويعرض بضعف خصومه، يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قال سيد رحمه الله: «وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (الأنفال: ٢)».

وقال تبارك وتعالى مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ سَنَنُقِلُّ آيَةً ثُمَّ وَاسْتَجَىٰ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي: «لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة» (٣).

وقد يمارس الطاغية أساليب قهرية أخرى، يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فرعون: ﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ

مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

«فالطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية، ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهى الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم، وتخذلهم البراهين ﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ

مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

هذه هي الحجة، وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه، وكيف وهو رسول الله؟ (٤).

ولما لم يستجب يوسف عليه السلام لنزوات امرأة العزيز أودع في سجون الطغاة عدداً من السنين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُمْ فَتَٰى جَبِينُ﴾ [يوسف: ٣٥].

وأول ما فكر فيه طغاة مكة بالمكر بنينا

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٠.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٥٩٣.

وهي النفي من الأرض والإقصاء، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَشَأْنُكُمْ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

والخلاصة: أن الطاغية لا يتحرج من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير^(٢).

محمد صلى الله عليه وسلم هو السجن، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويلجأ الطغاة إلى التعذيب إن لم ينفع السجن والتهديد، قال سبحانه: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِيدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكَ السِّحْرَ فَلَا تُطِعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَيْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ويقول سبحانه: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ [ص: ١٢].

«أي: صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه **الْأَخْفَقِلَ**»^(١).

وقد يلجأ الطغاة لوسيلة القتل، قال سبحانه وتعالى مخبراً عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وهناك وسيلة قديمة استخدمها معظم طغاة الأرض ضد أهل الحق والدعوة، ألا

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٤٠.

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٣٩.

جزاء أهل الطغيان

بين القرآن الكريم جزاء أهل الطغيان في الدنيا والآخرة، ونتناولها فيما يأتي:

أولاً: جزاء أهل الطغيان في الدنيا:

إن الشر مهما استعلى وطفى وبغى فلا بد له من نهاية مريرة، والطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسبون قوة الله وجبروته، فيهلكهم الله عز وجل، ويهيئ الله المستضعفين المعتدى عليهم أن يسحقوا هذا الباطل الأشمر، كما حكى الله عن بني إسرائيل: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

يقول سيد رحمه الله: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤذون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤذون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة وخوفاً، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس، يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح

والقلوب»^(١).

والله سبحانه يهيئ الأسباب لإهلاك الطاغية، وهكذا كانت نهاية فرعون ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَيَالْمُرْصِدُ﴾ [الفجر: ١٣-١٤].

وهذا هو مصير الطغاة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۖ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ۚ﴾ [الشعراء: ٤٥-٤٨].

وبين تبارك وتعالى أن هذا الإهلاك كان على سبيل الانتقام، فقال: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهَا اسْقُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويصف هذا الانتقام فيقول تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

أي: أخذاً شديداً^(٢).

ثم يبين لنا كيفية هذا الأخذ والإهلاك، فيقول تبارك وتعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ويقول: ﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٣.

الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر»^(٢).

وقد جعلهم الله عز وجل محلاً لللعن في الدنيا، قال تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُنُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].
أي: «وألزمتنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم، فختمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيئ»^(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ويوم القيامة هم من المقبوحين»^(٤).

وقد انتقم الله من الأمم المكذبة بأنبيائهم، قال سبحانه: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ

فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وذكر تبارك وتعالى ما ترتب على هذا الإهلاك من صنوف العذاب، منها: أن الله سبحانه دمر ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، قال تبارك وتعالى: ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولًا، وبالأذات ما له تعلّق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام...، ومنها الصرح الذي أمر هامان ببناؤه ليرقى به إلى السماء فيطلع إلى إله موسى، والثاني: كالمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة؛ لإبطال آياته، أو التشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ﴾ [طه: ٦٩]»^(١).

ثم إن الله تبارك وتعالى حرّمهم من النعمة والكنوز والمقام الكريم ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وورث تلك النعمة والكنوز والمقام الكريم لأعدائهم ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ۖ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فِتْكِيمِينَ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْفَقْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وجعلهم الله أئمة يدعون إلى النار، يقول

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٨٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٣٨.

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ
اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿العنكبوت: ٤٠﴾.

والقرآن الكريم يزخر بالآيات البينات
التي تتحدث عن المصير الثابت للطغاة
المتجبرين بالهلاك المحتوم في الدنيا،
والخزي الدائم يوم القيامة، وجزاء لما
اقترفته أيديهم الآثمة من ظلم وطغيان،
والله لا يحب الظالمين، ونهاية قارون التي
سجلها القرآن خير شاهد على ذلك؛ وذلك
إنه عندما يبلغ الظلم والطغيان مداه، وتبلغ
الفتنة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس،
تتدخل القدرة الإلهية الجبارة لتضع حدًا
للفتنة، وتقرر النهاية المحتومة للظلم
والطغيان ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا
كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتَةٍ يَصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصاص: ٨١].

فهذا مصير أهل الطغيان في الدنيا، أما
عقابهم في الآخرة فهو أشد وأنكى وأعظم
من عقاب الدنيا.

ثانيًا: جزاء أهل الطغيان في الآخرة:

أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح
وقوم شعيب وقوم لوط وفرعون وجنوده
كما كان يأخذ المكذبين والطغاة، ولكن
الجزاء الأخير سيكون عنده سبحانه: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ
عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ
غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِبِينَ
رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾
[إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فقد يعذب الله تبارك وتعالى الطاغية
في الدنيا، وقد يمهلها، أما في الآخرة فلا
إمهال، فعذاب الطغاة متحقق الحصول، قال
سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا وَإِلَى الطَّاغِيَةِ لَنُصْرُ
مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنُكِّلُ لَهُمُ الْهَادِ ﴿٥٦﴾ هَذَا
فَلْيَذُوقُوهُ جَمِيعٌ وَعَسَاقُ﴾ [ص: ٥٥-٥٧].

قال الرازي في تفسيره: «اعلم أنه تعالى
لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب
الطاغين؛ ليكون الوعيد مذكورًا عقيب
الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار
أنواعًا، فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال:
﴿هَذَا وَإِلَى الطَّاغِيَةِ لَنُصْرُ مَتَابٍ﴾ [ص: ٥٥].
وهذا في مقابلة قوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ
لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَتَابٍ﴾ [ص: ٤٩].

فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال

للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو أثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده، واختلت كل القيم في تقديره، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى^(٥).

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الظلم، فرعون، الفساد، الفتنة، القتل

المتقين»^(١).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٣١﴾ لِلطَّٰغِيْنَ مَنَآبَا ﴿٣٢﴾ لِّيَلْبِثْنَ فِيْهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢١-٢٣].

والمآب: المرجع، يقال: آب يؤوب إذا رجع^(٢).

قال أبو جعفر الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا يكذبون في الدنيا بها وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدقين بها، ومعنى الكلام: إن جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصدهم»^(٣).

فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله؛ ولهذا قال: ﴿لِلطَّٰغِيْنَ مَنَآبَا﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ إِنَّ إِلَهَ الْجَحِيْمِ هِيَ الْمَآوِي ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/٤٠٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/٤٤٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/١٥٨.

(٤) تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص ٣٠.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٨١٨.